بطالة الشباب المثقف

في القطر المصري

للدكتور احمد سويلم العمري

عضو المكتب الفني بوزارة المالية

أبواب الآمال موصدة في وجه الشاب المثقف عندنا . وها هو يرفع شكواه الصادرة من اعماق نفسه التي كادت تستسلم لليأس وقد أضحى المستقبل أمامها أضيق من سم الخياط الى القابضين على زمام الامور المتصرفين في مصيرها

من الدهشة الى الانكسار

كلمة شاب مثقف متطلع يعبر فيها عما تكنه جوانحه

لقد مضى عهد الدراسة اليوم فكنت بالامس اجوس خلال قاعات الجامعة ومدرجاتها وأسبح في خيال الآمال وأبني القصور وأحلم بمستقبل اشتقته من تاريخ العظماء الذين ملأوا علي حياتي المدرسية وتصدروا صفحات كتبي ودفاتري . اما اليوم فقد استيقظت من ذلك الحلم الرائع واذا بالحقيقة تزيح الستار عن الاماني الخادعة ، واذا بما كنت اصبو اليه وأراه دأبي التطوف ناشئاً نأي النزى عن الزيتا واذا بي وحيداً ضعيفاً كالريشة في مهب رياح الكفاح الدامي . كنت بالامس أرى مستقبلا يفتر ثغره ابتسام الاكمام عن الازهار وكنت لا أبالي بما أعاني من متاعب السهر في الحفظ والتحصيل متبعاً ما قاله أحد الحكماء لابنه « يا بني اجعل نظرك في العلم ليلاً فان القلب في الصدر كالطير ينتشر بالنهار ويعود الى وكره ليلاً » ولا تهمني من مشاغل الدنيا الا كتبي ودفاتري واستذكار الدروس . اما اليوم فقد اخذ علي الخوف من ظلام المستقبل نفسي وقلبي . وكلما تفرست في وجه هذا العالم العبوس المتجهم ، رأيت في ثناياه ان الضنك سوف يشتد بي حتى أصير في خصاصة من العيش لا استطيع ان أجد عملاً أسد به رمقي

كنت قبل ان اقرأ بالامس اسمي ضمن الحائزين على الاجازة العلمية احتال بين اقراني أزعم اني سوف أزعم . وسوف أصبح علماً من الأعلام في ميدان الحياة العملية . وكان يخيل لي اني

أمثلي منصة منصب عالٍ وأني آخر وأهي ولم يملك هذا شعوري وحدتي ، بل كان شعوراً جميعاً لمن معشر الذين يطلبون العمل ، مما يدل على مدى ما في صدورنا من طموح

أما اليوم فقد تغيرت عزيمتي . وهذا لا يرجع الى ما يعتب النفس من انكسار الى الراحة بل يرجع الى اني طرقت الابواب لاحظى بمن يمهد لي سبل الرقي ويحقق ما أصبو اليه، فاذا بي ازداد خائباً . بدأت مساء حياتي تتبدد باليوم وخفقت من غوائلي وطلبت اي عمل أين كان وبأي مرتب، وتضرعت واستعطفت فازددت خائباً بلا أدنى أمل . قيل لي ان أنجع الأمور من أبوابها وان أقصد العظماء وذوي الجاه لأحظى منهم بكلمة أو خطاب توصية وانى لا أستطيع ان احصل على عمل الا عن طريق التوصية . فلما ضاقت بي الحيل ، أرقت ماء وجهي وقصدت احد ذوي الجاه وقد كان يعرف أبي من سنين مضت فناولني خطاب التوصية بأطراف اصابعه متأففاً كأنهُ يخاف ان يلمس يدي فيصاب بمرض الفاقة ، وأي مرض أشد وطأة منهُ وقد عجز العلم عن مداواته بل لقد أودى بالعظماء وأذاهم ذوباناً . وتناول هذا العظيم بعد ان سلمني الخطاب « سماعة التليفون » وردد بضع كلمات لصديق يشغل منصباً من مناصب الحكومة ضخماً بضخامة مرتبه لم أفهمها بمذاقيرها أما ادركت منها ما يدركه المستجدي شديد الحاجة من احسان نادر الاحسان

بادرت الى حمل الرقعة الى دور الحكومة ثم انتظرت الرد كما ينتظر الجندي المحاصر خبر طلائع النجدة . وبعد ان مكثت ساعة بل اكثر، وانا على احر من الجمر يخفق قلبي خفقان المحموم وترتعد فرائصي ارتعاد الوالهة المشدوه احاول أن أستخلص من ثنايا وجه ذلك الذي استدر عطفه كلمة، إما لي وإما عليّ، نظر اليّ نظرة الكبرياء ثم قال لي : (عجيب ان يتهافت الشباب على وظائف الحكومة ومجال الاعمال الحرة فسيح وفي ميدانها متسع للكفاءات . على الشباب ان يغامر في التجارة او الصناعة او الزراعة وألا يتشبه بنا معشر الموظفين ويحذو حذونا فحالنا أسوأ حال ومآلنا أسوأ مآل لا تتعدى حياتنا دائرة الوظيفة فنحن كالآلات بلا فكر ولا ابتداع ولا تتعدى ثروتنا مهما تضخمت مرتباتنا حد ضرورات الحياة القصوى فلا تأمل في ضياع او عقارات او اسهم او سندات . واعلم اني كنت افضل ان اشتغل بعمل من الاعمال الحرة يدرّ عليّ الآلاف على ان اشتغل في وظيفتي هذه . ولا يغرّنك المرتب الضخم الذي اقبضهُ فان مرتباتنا تتضاءل في جانب ذل الوظيفة) ومضى في خطابته واخذ صوته يعلو شيئاً فشيئاً وهو ينظر إلى مرؤوسيه ليتلقى منهم نظرات وعبارات الاعجاب ثم تدخل وكيله بناء على اشارة منه وقد علمت فيما بعد انه محامٍ يجاد طالبي عطفه وقال لي (اعلم ان الحصول على وظيفة ليس من السهولة بمكان فخطابات التوصية عديدة ويفوقها الآن توسط العظيم القابض على زمام السلطة لا العظيم المتقاعد البعيد عن ميدان السياسة . وقد سبقك من هو اقوى منك واسطة واسرع منك في اقتناص

الوظيفة الشاغرة عندنا . وانى اصحك اليوم وأحالك ضعيف الواسطة ان تفوز فرصة الاعلان عن المسابقة للالتحاق باحدى الوظائف فتعد عدتك للامتحان وتتقدم اليه لتنضم الوظيفة متى أجدت الاجابة ما دمت لا تستطيع المغامرة في ميدان الاعمال الحرة)

لما كان المال يعوزني تعذر علي النزول الى ميدان الاعمال الحرة ، فتقدمت الى احدى المسابقات الحكومية وفزت فيها . على ان الفوز لم يحقق حصولي على الوظيفة فقد قيل لي ان الحكومة استغنت عن اشغال الوظائف المؤقتة ثم عمت بعد بضعة شهور ان الوظيفة قد شغلها غيري وقد اصبحت الحكومة بذلك التعطيل في حل من اشغالها بواسطة الناجحين في المسابقة

رأيت ابي يبدأ حياته كموظف في احدى بلاد الريف نائياً بالنيابات هناك وكنت طفلاً أمرح في الحقول ، وكثيراً ما كنت ألهو في رحبة المحكمة لقربها من البيت وارتع في صحونها وعرصاتها واصعد الى بهوها ثم انزل واغود ادراجي في صحبة ابي وانا سعيد بحياة الريف ، سعيد بحياة الطفولة البريئة فلا هموم ولا تفكير في المستقبل . وكنت أتيه عجباً حينما اصحب والدي في غدواته وروحاته ، وكان الاحترامات التي يقابل بها موجهة الى كل منا : الى ابي كممثل للسلطة العامة ، والي كابن احد رجال هذه السلطة . وكانت امنيتي القصوى ان اتربع في المستقبل في دست مثل هذا المنصب بل كانت هذه امنية اسرتي وذري قرباي . ثم صحبت والدي في تنقلاته بمختلف بلاد الريف . ومضت أعوام الدراسة بسرعة بينما يصعد أبي سلم الرقي المطرد ويختم جهوده في احدى كبريات مناصب القضاء بالعاصمة ، وأتممت أنا بدوري حياتي المدرسية وحصلت على اجازتي بفضل سهره على تثقيفي . وأريد اليوم ان ألج على منوال الآباء وان أمثل دوري في الحياة خير تمثيل وان أربح من المال ما يساعدني على تكوين أسرة لا تخيفها الفاقة ولا تفوض دعائم المتاعب المالية . أريد ان أكون ركناً صالحاً في بنيان مصر الحديثة وان أواصل جهود الآباء والأجداد . ولطالما قال لي أبي في ساعات حياته الأخيرة (انني أرحل من هذه الدنيا قرير العين فقد قمت بواجبي نحوك . لم أورثك المال لأني كنت موظفاً محدود المرتب ضئيله ، ولكني أنفقت عليك في سبيل العلم وهو كنز لا يفنى . سيفتح لك أبواب الرزق . سيفتح لك أبواب الوظائف على مصراعيها) فهل تبدّل العالم فأصبح غير العالم الذي عاش فيه جيل أبي وهل أصبحت الحال غير الحال فصار العلم وبالاً على صاحبه

لقد رشفتم أيها الآباء كؤوس الحياة هنيئة حتى آخر قطرة منها وتقلدتم المناصب وتربعتم في صدر أعلاها وأوفرها امنة واغزرها كسباً وحرصتم عليها حرص البخيل على المليم وبخشم على أطرافها بكلاليب من حديد . غير ان الفلك دوّار والحياة سائرة في طريق لا رجوع منه وها ميزان النهار قد مال وأذنت شمسه بالغروب ، وكما أتيح الأجداد للآباء الطريق وقلدوهم أعنة

الحياة العملية ليستريحوا بضرورهم يحسن ان يكن الآباء ملاّ بناء مسئوليات الحياة كي يضطلعوا بها

لذلك نحن شباب اليوم افكار جديدة نريد ان نصبغ بها كافة مناسب الحياة حتى تواصل بلادنا تقدمها وتأخذ بنصيبها وافر من المدنية الحديثة . وان اغلاق الابواب في وجوهنا لا يحزننا دون مشروعاتنا فحسب ، بل يخوف أيضاً دون تكويننا الأسرة

ما أشد الامة قواتا معطلة على الرغم منها فهلاّ آن الاوان لاطلاقها من عقالها

من الشباب الى الشيوخ — أصبحنا الشيوخ للشباب

تعمت صرخة الشباب المثقلة حماسة بقدر امتلاء الصدور الخارجة منها . هي صرخة الشباب الذي يستعد لخوض غمار الحياة العملية فيلاقي الصعاب تعترض طريقه كما لاقى من سبقه في ذلك السبيل فيشن الغارة على الجيل الماضي طوع سنة التجديد . ليس ذلك اتهديد بالجديد قطالما تحاجت وتناهضت اجيال القديم وأجيال التجديد والبناء وطالما أنذر الابناء بخطورة الموقف وتوعدوا الآباء بهدم كل قديم وطالما جاءوا بآرائهم ظاهرها خلاّب خدّاع ثم ما لبثوا ان أعرضوا عنها وسلموا بخطأهم بعد التجربة القصيرة، ودلفوا الى حكمة الآباء وانائهم

اننا نستا أبناء جيل او بضع سنين في هذه الحياة الدنيا بل لقد ورثنا في ساعة ميلادنا تراث القرون والاحقاب فعلينا تعهد ذلك الميراث بالري والسقيا علينا ادخال وسائل التحسين عليه لا تحطيمه وانتلاعه من جذوره . وكما اننا في حاجة الى افكار الشباب ونشاطه لمواصلة استثمار هذا التراث العظيم فالشباب أيضاً في حاجة إلى غرس أيدينا . مما لا شك فيه ان الشباب يعبر عن آراء حديثة لها اجل فائدة في التقدم العالمي اذا استبعدت منها المبالغة . ومما لا شك فيه ان الشباب يمج تردد الشيوخ الذي يضيع عليهم الفرص واكثارهم من القول والمناقشة والجدال . ومما لا شك فيه ان الشباب يتأجج حماسة، بعكس الجيل السابق الذي كادت تطفىء ذباله وكاد ينتهي عهد كفاحه وهو يستعد لتسليم مفاتيح الحياة الى رجال الغد . غير انهُ مما لا شك فيه ايضاً ان الشباب ينقصهُ التمرن وفي حاجة الى نصح الشيوخ الذين حنكهم الدهر وعجمت عودهم الخطوب

يعيب الابناء الآباء على ما كانوا عليه منذ جيل او أكثر. فيقولون انهم لم ينعموا بسهولة الحياة التي نعم بها الآباء في القرن الماضي وانهم لم يحصلوا على ما حصل عليه الآباء من الثروة وراحة البال واستقرار العيش وثبات النظم السياسية والاقتصادية، بل انهم ضحية عصر انتقال وقربان تقدمهُ مدنيتنا وقد فقدت اتزانها على مذبح التطور، وان الآباء لم يشهدوا إبّان نضارتهم حياة ضيق الرزق الناشئة لا عن قحط او شح انتاج ، فالمنافع فيض بالمنتجات والحاصلات ، بل عن وفرة الانتاج

للآباء بعض العذر في حياة هذا الجيل عصيبة لان التاريخ يقدم أمثلة انقلاب خطير شبيه بذلك التطور الذي قضى على عهد الاقطاع باوروبا وأحلّ البندقية والمدفع محل القوس والنشاب

والمنجنيق وكذلك التطور الذي قضى على الصناعات اليدوية وأساليب المواصلات القديمة بحلول الآلات والقاطرات والسفن البخارية محلها في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . يصحب التطور الاضطراب ثم يقوم البناء الجديد على أساس وطيد وسوف يخرج العالم من أزمته هذه كما خرج من الأزمات السابقة أشد وأقوى

واجب الابناء اليوم تجاه المدنية الحديثة اشق من واجب الآباء فيما مضى غير ان مجال العمل للشباب المثقف أفسح من مجال الآباء . على الابناء تشييد صرح العالم الاقتصادي من جديد ومكافحة زيادة الانتاج ، لامكافحة قلته وشحه كما كافح الآباء ذلك . وعليهم تنظيم العملة ووضع قواعد ثابتة تربط الاسعار العالمية بعضها ببعض فتنظم العلاقات بين الدولة والمال ووضع قواعد صالحة جديدة للعقود والالتزامات وعليهم التوفيق بين حرية الفرد وواجباته نحو الدولة وتوطيد دعائم السلطة مع احترام سيادة الامة وعليهم وضع أسس ثابتة للسلام واصلاح جامعة الامم اصلاحاً يضمن لها الخلود،خلود الهياكل والمعابد.وعلى الصوم عليهم ان يضعوا أساً فلسفية جديدة للحياة لتسير دفة العالم . لاشك في ان الأعباء الملقاة على عاتق الابناء ثقيلة تبارك قوام ستجعل شبابهم عبئاً وعيشهم شظفاً . غير انها سوف تجعل منهم رجالاً اشداء وسوف تهبهم اذا حلت شيخوختهم حياة آمنة ترفرف عليها اجنحة السلام . فليس لكم ايها الابناء ان تتذمروا وتضجوا بل عليكم ان تجاهدوا بجلد . ومما لاشك فيه أن الآباء يغبطون سن العشرين في سنة ١٩٣٦

لقد سهر الآباء عليكم ايها الابناء وعنوا بتربيتكم ورفرفوا بأجنحتهم على اعشاشكم يوم كنتم صغاراً . وعليكم اليوم ان تذودوا عنهم وتواصلوا جهودهم وعسى ان تكونوا أوفر منهم حظاً فتحققوا ما لم يستطيعوا تحقيقه . عليكم ان تعلموا ابناءكم غداً ان يعلموا احفادكم على مر العصور والاجيال ، كيف يواصلون بناء صرح مصر المستقبل

لكم يا معشر الشباب ان تتساءلوا ماذا يغني العلم اذا بات صاحبه على الطوى ، وماذا يفيد الدرس والتحصيل اذا تعذر على الشباب المثقف ان يقوم بأوده بعد ان قوّم فكره وان يجني ثمار جده وتحصيله في ميدان حياتنا المادية هذه وقد تطور العلم فأصبح وسيلة للارتزاق

ومهمتنا نحن الآباء ان نذلل الصعاب التي تعترضكم ونمهد لكم طريق الحياة المكدسة بالصعوبات وننير لكم سبل الاعمال . اما الوقوف عند حد اسداء النصح لكم بانخراطكم في سلك التجارة والصناعة والزراعة وسائر الاعمال الحرة دون التطفل في اعناق داء البطالة واستئصال شأفته،فهو ما لا يجدي بالفرض بحال،وما لا يغني فتيلاً . وذلك لاننا غفلنا فيما مضى عن ميدان الاقتصاد الفسيح بتهافتنا على الوظائف حبًّا في راحة البال وتفضيلاً للمرتب الثابت على المغامرة فاحتله غيرنا حتى ازدحم ازدحاماً شديداً وتعذر علينا اليوم خوض غماره هذا الميدان المكتظ بالبيئة الاجنبية

اسباب بطالة الشباب المتعلم عندنا

تتراءى البطالة عندنا في اكثر طلبات التوظف والاستخدام بالحكومة والشركات وفي المهالها كثيراً اعظم من وظيفة خالية حيث ان قادحاً يزيد على عدد محان المراد اشغالها بمئات المرات وفي هبوط مستوى تقدير جملة الشهادات واضطرارهم الى شغل وظائف لم يتخصصوا لها وغالباً ما تكون دون مستواهم العلمي ومؤهلاتهم . وفي شكاواهم وصياحهم وفي نقصان دخل اصحاب المهن الحرة من اطباء ومحامين ومهندسين تبعاً لتزايد عددهم سنة بعد اخرى ، وما يتراءى فيما يحيط بنا من مناحب الحياة . وهي ابعد غوراً وأشد أثراً مما قد يتيسر لاول وهلة . فعلاوة على ان للازمة العالمية يداً في كساد الاعمال وانحطاط الاسعار وبطالة المتعلمين عندنا ، شأنا شأن الامم الاجنبية . فهذه البطالة نتيجة محتومة لأزمة محلية خطيرة نجمت عن تزايد عدد السكان من ٥ر٢ مليون من الانفس الى ما يربو على الاربعة عشر مليوناً واحتمال ارتفاع الرقم في المستقبل الآجل الى اكثر من ٢٠ مليون بينما ان الاراضي الزراعية وهي عماد ثروة البلاد لم تزد عن الضعف الا قليلاً وقد وصلت الى ما يقارب الخمسة ملايين ونصف من الافدنة ولن تتجاوز مساحة الاراضي بعد اصلاح البور منها سبعة ملايين . ومعنى هذا ان عدد السكان رغم تضاعفه يعيش على نفس موارد الرزق غير القابلة للزيادة الكبيرة . ويترتب على ذلك اشتداد الكفاح في سبيل الحياة وازدحام الاعمال بشاغليها مع قلة موارد القرية مما لا يؤهله لمستلزمات المدنية الحديثة ومما يقصيه عن المتعلم الذي يتطلب اجراً خليقاً بعلمه . وهذه الظاهرة مشاهدة في الاطباء والمحامين حيث ان موارد الفلاح ضئيلة بحيث لا يلتجىء اليها الا عند الضرورة القصوى ويعرض عليها اجراً زهيداً يزيد في زهادته وقلته ، شدة تنافس اصحاب هاتين المهنتين وهبوط دخل الفلاح بفعل الازمة وجهله تقدير مزايا الاعتماد على الطب او المحاماة لأهميته

وعلاوة على ان موارد ثروة البلاد لا تتناسب مع تزايد عدد السكان ، فهناك اسباب اخرى تضاعف اشتداد ازمة بطالة المتعلمين عندنا كعدم تمشي ثقافة المتخرجين وتعليمهم والامر الواقع ، حيث ينقصهم الكثير من المعارف التجارية والصناعية ولا يلمون إلماماً كافياً باللغات السائدة في عالم التجارة والصناعة لقلة عنايتهم بها واستعمالها في بيئتهم . والفرق بين حالتهم وحالة الاجنبي شاسع فبينما نجد المصري لا سيما الريفي لا يرى كثيراً تطور الحياة العصرية في بيئته اذا بالاوربي المقيم في مصر شأنه شأن الاوربي في الخارج سواء اكان بالمدينة ام بالريف ، يتشبع بروح التجارة والصناعة وتطور الحياة العصرية لانه يحيا بين اهله وعشيرته في بيئة تملك ناصية الاقتصاد في البلاد ، ويهضم ما يتلقنه بالمدرسة بسهولة حيث ينسج على منوال في حياته العملية العصرية

ومما لا شك فيه ان هناك اطراد في زيادة عدد المقبلين على الثقافة العالية والفنية عندنا واذا

قورنت هذه الزيادة برخاء الاهلين ، برزت مشكلة بطالة الشباب المثقف جلية واضحة . غير انها زيادة ضئيلة في جانب مجموع عدد سكان القطر ولم يتطلبها اخذ البلاد بأساليب المدنية الحديثة من جهود المثقفين . ويتضح ذلك من الاحصاء العام لمعاهد التعليم بالقطر المصري للسنة الدراسية ١٩٣٣ و١٩٣٤ . —

١ — عدد المدارس ٨٤١٢ وعدد الطلبة من بنين وبنات ٧٦٥ ر ٩٤١

٢ — اطراد زيادة المقبلين على الثقافة العالية من المصريين بالجامعة المصرية والمدارس المختلفة خارج القطر والمدارس العالية في مصر ومدارس التخصص والفنون والصناعات والزراعة ما بين سنة ١٩٢٣ — ١٩٢٤ و ١٩٣٢ — ١٩٣٣ : —

سنة ١٩٢٣—١٩٢٤	١ر١٠١	تموا دراستهم	
« ١٩٢٤—١٩٢٥	٩٤٠	«	
« ١٩٢٥—١٩٢٦	١ر٥٨٧	«	
« ١٩٢٦—١٩٢٧	٨١٨	«	
« ١٩٢٧—١٩٢٨	٧٨٤	«	
سنة ١٩٢٨—١٩٢٩	٩٤٣	تموا دراستهم	
« ١٩٢٩—١٩٣٠	١ر٠٠٧	«	
« ١٩٣٠—١٩٣١	١ر٢٨١	«	
« ١٩٣١—١٩٣٢	١ر٨١٣	«	
« ١٩٣٢—١٩٣٣	١ر٩٦٩	«	

انما تبدو الصعوبة في تهافت جل هؤلاء المتخرجين على وظائف الحكومة. ويتضح ذلك كما هو مبين بعد ، من مقارنة متخرجي الجامعة المصرية وعدد من وظف منهم بالمصالح الاميرية طبقاً للاحصاء العام لمعاهد التعليم في القطر المصري : —

السنة	المتخرجون	الموظفون منهم	السنة	المتخرجون	الموظفون منهم
١٩٣٠	٣٢٨	١٧٣	١٩٣٣	٣٢٠	١٣٩
١٩٣١	٣٨٥	١٦٣	١٩٣٤	٢٨٦	١٦٢
١٩٣٢	٣٧٥	١٩٣			

ليست ازمة البطالة في بلادنا ناشئة عن ان مستوى الذين يعرفون القراءة والكتابة ١٠٠ ٪ او ان عدد المتخرجين من المدارس العالية يزداد زيادة لامبرر لها كما هي الحال في البلدان الاجنبية . بل بالعكس ، يتضح مما بيناه فيما سلف ان الخمسة عشر مليوناً من سكان القطر يتوقون الى خدمات ونصائح المثقفين من اطباء وقانونيين ومهندسين واقتصاديين وزراعيين وفنانين وكيمائيين وغيرهم، وان في البلاد متسعاً لجهود اضعاف ابنائها الحالين المثقفين . الا ان موطن الداء هو فقر السواد الاعظم من الامة وانحطاط مستوى معيشتهم حيث يقتاتون بكسرة من خبز الادرة وقليل من السمار او الجبن ، ويصلون حفاة عراة في الطين ويسكنون بناء اللبن الطيني ويلتحفون السماء كما يتخذون الفراء مضجعاً